سليمان

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ﴾

(النمل الآية ١٦)

وَرِثَ مُلْك أبيه ، ومقامه فى النبوة ، وقضاءَه فى الناس ، وعلَّمه الله لغة الطير ، والنمل ، وسخر له الريح تجرى بأمره ، وتنقله بكرسيه فى لمحة ، غُدُوُّها شهر ، وَرَوَاحُها شهر ، واستعبد الله له الجنَّ تخدمه ، والشياطين تَغُوص له البحار ، وتستخرج له نفائسها ، وتبنى له القصور ، وتخترع له الصنائع الحربية ، وفجَّر الله له بركانًا ، يسيل منه النحاس المصهور ، فتبنى له الجن قصورًا ، وتصُبُّ له تماثيل للأسود والصقور والنسور ، تزيِّن بها عرشه ، وقوائم كرسيه . وتصنع له صِحَافًا كبيرة ، وأطباقًا صغيرة كأطباقنا وقواربنا ، وجِفانًا كبيرة متسعة كالأحواض ، وقُدُورًا واسعة ، لا يمكن إنزالها عن كوانينها وأثافيِّها ..

واتسع عليه مُلكه ، وتوفرت لديه مظاهر أبهته ، حتى الخيل الصافنات الجياد ، كانت تعرض عليه ، ليُمتِّع نفسه باستعراضها ، ويُشبع هوايته بالمسح عليها ، والإعجاب بالأصائل المعْرِقة منها ، حتى ألْهاه تكاثرها ، وزَهَتْه زينتها ، فقضى اليوم كله فى الاحتفال بها ومرور وموكبها بين يديه حتى غابت الشمس ، ولم يُقِمْ الصلاة ، ولم يفرغْ لذكر الله ، وشغلته غزارة الخير ، واجْتِرارُ النعيم ، ولذة الاقتناءِ ، عن ذكر ربه ، حتى انقضى النهار ، ودخل الليل ..

فلما أفاق ، ندم ، وخشى غضب الله ، وتوقَّع ما يكون من غضب الله ، فثار على الخيل التى ألْهته ، وهمَّ أن يضرب أعناقها ..

ولكن ما ذنبُ الخيل والذنب ذنبه ؟ وما جريرتُها ، وهى من عَطاءِ ربِّه ؟ فتاب وأناب ، وقال :

﴿ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴾

(ص الآية ٣٣)

وفى المسْح عليها ، استِرْواحٌ للنفس ، واستشْعارٌ بالعطاء ..

ومثلُ المسْح عليها بيد الحنان والرضا ، بعد أن كان سيضرب أعناقها وهو غاضب عليها ، كَمَثَلِ المسحِ على رأسِ اليتيم ، استجْلابًا لرِضا الله ..

* * *

كل هذا المُلْك ، وهبه الله لسليمان ، فما كان يشغله عن ذكر الله ، ولئن شغله ، فلقد كان أسرع إلى الأوْبة والتوبة إلى ربه ، يسأله الصفح والغفران ..

سليمان .

﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾

(ص الآية ٣٠)

وكان أبوه النبى داود عليه السلام ، قد بدأ يبنى ، مدينة أورشليم ، فى الموضع الذى ضرب فيه موسى خيامه ، يوم حطَّ فى الأرض المباركة ولكن المنية أعجلتْ داود . فما أتم ، فيُتم سليمان ما بدأ أبوه ..

فسخَّر الإنس والجن والطير ، وكلَّ ما يملِك من عَتَادٍ ، حتى النحاس المصهور ، والشياطين ، كلَّ بنَّاءٍ وغوَّاص ، ومن الشياطين من يغوصون له ، ويعمَلون عملاً دون ذلك ..

* * *

ومن الشياطين فريقُ المرَدَة ، ميَّالون للشر ، نزاعون للضرِّ ، فإنْ انطلقوا ، عاثُوا فى الأرض ، وأفسدوا المعاش ، وهتكوا الأستار ، ونغصُوا على الناس ، بِطَلاسِمِهم وسحْرهم ، فبلبلوا خواطر خلق الله ، حتى كاد يصدِّق كثيرٌ ، أن لهم أمرًا من دون الله ..

﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ ﴾

(البقرة الآية ١٠٢)

* * *

عصر سليمان كلُّه خوارق ، وأحداث ، ومعْجزات ، وعجائب ..

جنٌّ تخدم ، ورياحٌ تسرى ، وطيرٌ تتكلم ، ونملٌ تعترض ، وسِحرٌ وسَحَرة ، وجنٌّ مَرَدةٌ كفرة ، ونحاسٌ ذائب ، واطِّلاع على أخبار الغائب ، ونبى مالِكٌ على بِساطِ الريح ، وطيرٌ تَفْرِدُ أجنحتهَا عليه ..

فى هذه الهيئة ، وهذه القوى المُسخَّرة المُسيَّرَة ، عاش سليمان ..

* * *

﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ (النمل الآية ١٧)

وبأمره يأتمرون ، وفى حَشدِه يسيرون ..

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ ﴾ (النمل الآية ١٨)

ووادِيهم بالشام ، تكثر فيه النمال ، وكما للنَّحل يَعسُوب ، فللنمل يعسوب ، مَلِكَةٌ عليه ، تدبر أمره ، وتدفع الخطر عنه ، وتبصره وتُحذِّره ..

ورأت مَلِكَةُ النمل ، جيوش سليمان ، قادمة ، فخافت أن تدوس الجيوشُ رعاياها من النمل ، وهم لا يشعرون ..

فصاحت فيهم :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

(النمل الآية ١٨)

وسليمان يفهم لغة كل حَىّ ، فسمعها ، وسرَّه أن يعرف لغتها ، وحرصها على رعيَّتها وحَسبَ ذلك تعليمًا له فى الحِرص على رعيَّته ، وطلب من الله أن يُوفقه إلى شكر نعمته ، التى أنعمها عليه وعلى والديه ، وأن يعمل الصالحات التى ترضيه ، وأن يدخله الجنة برحمته مع عباده الصالحين ..

* * *

﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ۝ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ (النمل الآيتان ٢٠/٢١)

ولم يَطُل غياب الهدهد ، حتى جاءَ يحمل خبرًا ، أىُّ خبر ، متحدِّيًا سليمان فى مُلكه وسطوته على الجن والإنس والطير ..

ويقرِّر الهدهد : أنَّ الله سبحانه يَهَب عِلمه لَمن يشاءُ ، وقد يتخطَّى به الأنبياءَ ، ويمُنُّ به على الطيور الخرساءِ ..

﴿ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ (النمل الآية ٢٢)

* * *

سبأ فى اليمن ، ونحن يا هدهد فى الشام ، فكيف وصلت ؟ وكيف عُدت ؟ وأى ريح حملتك ؟ ..

إنها قدرةُ الله يا سليمان ، ولقد وجدْتُ القوم هناك ، تملِكُهم امرأة ، بِلقيسُ مَلِكَة سبأ ..

ويا سليمان . لقد رأيتُ عجبًا ، رأيت القوم يعبدون الشمس ، ويسجدون لها من دون الله ، وزيَّن لهم الشيطان أعمالهم ، فصدَّهم عن السبيل ، فهم لا يهتدون ..

ياليت هؤلاء القوم يتدبرون ويتفكرون فى خلق الله ،

﴿ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (النمل الآية ٢٥)

ويعلم ما يُخفُون وما يُعْلنون

﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾

(النمل الآية ٢٦)

يا ليتهم يا سليمان ، يجدون هاديا يهديهم ، ويزكِّيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ! ..

يا ليتك يا سليمان ، تدعوهم إلى الله وتُنقذهم من حَمأةِ الشرك والضلال ! يا ليتك ! ..

وعجب سليمان للهدهد ، يغيب ويغدو إلى اليمن ، ويرى الناس ، ويتفهَّم أحوالهم ، ويعلم دينهم ، ويدرك ضلالتهم ، ثم يعود فيشرح ما يرى ، ويتمنى على نبى الله أن يَنْشطَ ويهدى خلقَ اللهُ ! ..

ويستكثر سليمان على الهدهد ، أن يدرس حال أهل سبأ فى لمحة من زمن ، ويستبعد أن يكون ذلك من طير ، ومن هدهد ، كان منذ لحظة يتوعَّده بالعذاب ، ورأى فى هذا ، قدرةَ الله ، وأنها فوق كل قدرة ، وأنَّ فضلَ الله ليس مقصورًا على الأنبياء ..

وخشع وخرَّ ساجدًا ، وقال للهدهد :

﴿ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (النمل الآية ٢٧)

﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾

(النمل الآية ٢٨)

وبأىِّ صورةٍ سيردُّون ..

﴿ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾

(النمل الآية ٢٨)

وطار الهدهد بكتاب سليمان ، وألقى الخطاب فى حجرة الملكة بلقيس ، فلما قرأته ، جمعَتْ القوم ، وعرضته عليهم ، وقالت إنى أُلقى إلىَّ كتابٌ كريم ..

﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ ﴾

النبى الملك

﴿ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣٠ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾

(النمل الآيتان ٣٠/٣١)

يا قومى ، ماذا ترون فى هذا الإنذار ، وبماذا تشيرون علىّ أن أعمل ؟ فإن الرأى شورَى ، وهذه مسألةٌ خطيرة تمسُّ ديننا وحريتنا ، واستقلال وطننا ..

وألمَعَتْ بلقيس وهى تعرض خطاب سليمان ، إلى ما فيه من تهديد ووعيد . ولمَّحتْ إلى ما يدَّخره الوطن فى رجاله وشبابه لدفع خطر الغزو ، وشَبَح الاستعباد ..

ولوَّحتْ بما يُثير حماستهم ونخوتهم وغيرتهم على بلادهم ..

﴿ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾

(النمل الآية ٣٣)

ونَحن على أُهْبة الاستعداد والتعبئة والأمرُ إليك ، فانظرى وقُدرى ، ونحن طوعُ أمرك ، ورهن إشارتك ..

* * *

والنساء أفتكُ أسلحتهن الدّهاءُ . فقالت : مهلاً يا قوم ، فالرأى عندى أن نستخدم الحيلة ، حتى نكشف سره ونَسبُرَ غَورَه ، ونقدِّر مَدَى تحمُّسه لرأيه ، وتمسُّكِه بتهديده ، فإن الملوك إذا دخلوا قريةً أفسدوها ، واستباحَوها ، وكسروا شوكتها ، وجعلوا أعزةَ أهلها أذلةً .

وهم لابدَّ فاعلون ، وما غُزِىَ قومٌ فى عُقر دارهم إلا ذلُّوا .

والرأىُ أن نُرسل إليهم بهدية ، لنرى ماذا سيردُّون علينا .

وماذا تكون الهدية ؟ لمثل هذا النبى الملك ؟ الذى يبعث تهديدَه فى منقار هدهد ؟ لابدَّ أن تكون أغلى ما فى خزائن الدولة ، من نفائس وجواهر ولآلئ ، ولابد أن تكون سيوفًا يمانية ، وحِرابًا سبائية ، على خيلٍ مطهمة ، يقودها فرسان وغلمان ! ..

والهدهد يتسمَّع ويترقب ، حتى إذا تحرك مَوكب الهدية ، انفلت وطار ، وسبق الريحَ إلى سليمان ..

وانقضت فترةٌ من زمان ، حتى وصل الركب على باب سليمان ، فلما دخل عليه ، وأُلقى بالهدايا بين يديه ، نظر إليها سليمان نظر العفيف الذى أغناه ربه . أغنى نفسه بالتعلق بالله ، وأغنى خزائنه بوافر المال . واستهان بتفكير القوم ، واستبشع دهاءَ هذه الملكة ، فهى تود أن تشترى ذمته ، وتستلين عزمته ، وتشيع عاطفة الاستحواذ فيه ..

فتأبى عليها ، وازدرى مالها ، وإنها مهما أغدقت عليه ، فإن ذلك لا يصرفه عن تشبثه بإسلامها ، وإسلام قومها ، فهذه مهمته ، وذلك واجبه ..

﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾

(النمل الآية ٣٦)

فرح الصبيان باللعب والهدايا ..

خذ يا رسولها ، خيلك وجواهرك ومالك ، وارجعْ إلى ملكتك ودولتك وأنذرهم أننا فهمنا حيلتهم ومكرهم ، وأنهم مصرُّون على دينهم ، وأنهم بالهدايا ، يحسبَون أننا نسكت عنهم ..

﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾

(النمل الآية ٣٧)

وعاد رسولها إليها ، والهدهد فى جو السماء يطير من فوق رأسه ، وسمع الملكة ، وسمع ما قررت العزم عليه ، وقدَّروا أنهم لا يقوون على سليمان ، وأن أقرب طريق إلى الأمن والسلامة ، الطاعة والتسليم .

* * *

وعاد الهدهد إلى سليمان ، فأخبر : إنهم فى طريقهم إليك ..

* * *

وسأل سليمان الجن : أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين ؟ ..

قال عفريت من الجن ، أنا آتيك به قبل أن تقوم واقفًا من مجلسك ، فقد منحنى ربى من القوة ، أن آتيك به ، وإنى عليه لقوىٌّ أمين .

وتصدى له أخٌ عفريت ، أقدر منه ، فقد استمد قدرته من الله ومن سرّ كتاب الله ، ومِنْ دعائه ربه باسمه الأعظم ، فهو مَدَدٌ ، يهون بجانبه كل مدد ..

ومن أجل هذا ، أشاع الله اسمه الأعظم بين سائر أسمائه التسعة والتسعين حتى ندعوه بأسمائه كلها ، لا ندرى أيها الأعظم ، كليلة القدر مشاعٌ بين ليالى رمضان ..

وقال العفريت يا سليمان ، أنا أستطيع أن آتيك بعرش هذه الملكة ، قبل أن تغمض عينك وتفتحها .

﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾

(النمل الآية ٤٠)

فلما آنس منه هذه المقدرة ، ورآه مستقرا عند كلامه ، يقول ويفعل وينفذ ، قال سليمان :

﴿ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾

﴿ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾

(النمل الآية ٤٠)

* * *

وقال سليمان للجن ﴿ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا ﴾ (النمل الآية ٤١)

وغيِّروا فى معالمه تغييرًا خفيفًا ، وموِّهُوا فى ألوانه تمويهًا لطيفًا . لننظر تدبيرها ، ونختبر ذكاءَها ، ونحكم على تصرفاتها إن كانت ستهتدى وتعرفه ، أم تكون من الذين لا يهتدون ..

* * *

ولماذا فكَّر سليمان فى امتحانها ! هل سمع كلامًا عنها ؟ أم افترى بعض الجن عليها . فقبَّحوها ، ونسبوا إليها ما هى بريئة منه ؟ ..

* * *

لقد أبلغه بعض المفترين من الجن أنها مريضة بداءِ العناد والكِبر ، وأنها تُصِرُّ على رأيها وتكابر فيه . ومن أجل هذا ، جعل كتابه إليها يحمل فى طياته التهديد والإنذار . وادَّعَوْا عليها ، أنها ليست امرأة ، ففى ساقيها شعر ، كشعر الرجال . فأحب أن يكشف سرها .

وجاءُوه بعرشها ونكروه ، ووضعوه فى مدخل المكان ، وفى صدره جلس سليمان على عرشه .

فلما جاءت ، سلِّمت ، وهِّمت أن تجلس ، قيل لها : أهكذا عرشك ؟ فتأملته وتبينته ، وفى هدوءٍ قالت : كأنه عرشى ، وفى نفسها عجبٌ عجيب ، أىّ قوة أتت بعرشى من سبأ إلى هنا ؟ وإن هذا لا يكون إلا بمعجزة ، والمعجزات لا تظهر إلا على يد نبى . وإن سليمان بهذا لابدَّ أن يكون نبيا ، فوق أنه مَلِكٌ قوى . فقال سليمان متحدثًا بنعمة الله

﴿ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ (النمل الآية ٤٢)

مؤمنين بما علمنا من قدرة الله

* * *

وأحب سليمان أن يختبر عنادها وكبرياءَها ، وأن يكشف سر ما أشاعوه فى تنكرها ، وما قبَّحوها من عيوب فى خِلْقتها ، وشعر فى جثتها .

فأمر الجن فحفروا نهرًا أمام عرشه ، وأجرَوا فيه الماء ، وأطلقوا فيه السمك ، مختلف الأحجام والألوان ، وغطَّوْا هذا النهر بزجاج يشف عما تحته . ثم أدخلوها على سليمان ، فرأت النهر بينها وبينه ، فحسبته لُجَّة ، وماء عميقًا ، وهى لابد داخلة عليه ، حتى لو عبرت وخاضت البحر إليه ، حتى تنفى عن نفسها تهمة الإصرار والاستكبار .

وهى لابد تخوض الماء ، ولابد ترفع ثوبها قليلاً قليلاً ، فكشفتْ عن ساقيها .

* * *

وكثيرٌ على ملكةٍ أبيَّةٍ ، أجبرتْها القوة ، وأرغمتها أن تكشف ساقيْها ، فى حفل عظيم كحفل سليمان ، وحسبت ذلك امتهانًا وهوانًا ، واحتسبَتْ هوانَها فدْيةً لوطنها ، وبانَ جمال ساقها ، وأناقة قَدَمِها ، وتجلَّتْ قدرة الله وجلاله فى سِحْر جمالها ، وبدتْ هيبتها وعظمتها فى خضوعها وتواضعها ، وكذبتْ الشائعات فيها ، واستولتْ على قلب سليمان ببهائها ، فتسرب إلى قلبه حبُّها . فأسرع إليها ، وقال لها :

أُسْدلى يا بلقيس ثيابك ، ياملكةَ سبأ ، فهذا زجاج شفيف ، يشف عما تحته

﴿ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ﴾

(النمل الآية ٤٤)

تستطيعين أن تعْبُرى عليه ، ولا تخافى أن تقعى فيه .

* * *

وبهرها هولُ الموقف ، وراعها تهويلُ الجن ، وكيف يخْدَعُ الفكرُ البصر ، وخرَّتْ ساجدةً لله ، ثم رفعتْ رأسها وهى راكعة ، تسأل الله الغفران .

﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى ﴾ (النمل الآية ٤٤)

فيما كنت أعتنق من دين قومى . رب : إنى

﴿ أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (النمل الآية ٤٤)

* * *

وما كان يصدُّها عن الإسلام ، إلا أنها عاشتْ فى بيئةٍ كافرة . ولم تبْلُغهم الدعوة ، ولم يَدْعهُم رسول .

فكانتْ من أهل الفترة ، وأهل الفترة ناجون . حتى نبعث رسولاً .

وآمنتْ بسليمان عن عقيدةٍ ويقين ، لا عَنْ رهبةٍ وخوف ، وتزوَّجها سليمان ، فكانت أكرم نسائه عليه .

* * *